جمهوره، بل قد يحاول الإقناع بالقياس والمثال ، على نحو ما عكسه من تصوير الماء عند أبى تمام فى قوله :

لا تسقنى ماء الملام فإننـــــــى صبٌّ قد استعذبْتُ ماءَ بكائـــــــى

فإذا ما سخر منه الناقد وأرسل إليه بزجاجة ليملأها من ماء الملام هذا دافع عن موقفه بذكاء ردَّه قائلاً «إذن فأتنى بريشة من جناح الذل» ، كاشفا عن مصادر عمق تصويره من واقع تأثره بالمادة المطروحة فى الآيات القرآنية الكريمة ، حيث يشير إلى قوله تعالى (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) .

ومع هذا يظل سوء النوايا مطلوبا فى كثير من الأحوال طبقا لما تفيده أخبار بعض الشعراء وسيرهم ، وعندها يعد من قبيل القصور النقدى أن نكتفى بظاهر النص للتوقف عند حقائق الأخلاق لدى الشاعر ، وإلا عُدَّ أبو نواس شديد التدُّين والزهد - بهذا القياس - ومن قبله عمر بن أبى ربيعة ، على عكس ما كان عليه كل منهما فى جوهر حياته بين غزل عمر وإسرافه على نفسه فيه من خلال حسه الحضارى ، وبين مجون أبى نواس وعربدته خاصة فى خمرياته وغزلياته ، فعلى الرغم من تزاحم الأفكار الدينية على كل منهما عبر حواراته ، وعلى الرغم من ميل أبى نواس إلى الزهد في بعض فترات حياته إلا أن سيرته تظل كاشفة عن بعده عن الدين كشفها عن عدائه له ، فثمة فرق جوهرى بين زهده وتوبته وبين ندمه ومعاودة تمرده حتى لايكاد يتجاوز تلك اللفظية حول المعتقد ، أو الاقتباس من معجمه باعتباره مصدرا ثقافيا فحسب .

وهكذا تتداخل لدينا معايير التفاعل مع الواقع ،والتاريخ من حيث الدعوة إلى تتبع حركة شعراء الفترة على ما بينهم من تناقضات تظل دالة عليها ، كاشفة تفاصيلها بصرف النظر عن قياس السالب والموجب منها ، ذلك أنها تنتهى إلى إثراء الموقف حين تعمد إلى تحليله من كل جوانبه إذا حكَّمنا فى ذلك طبيعة الإبداع لدى الشاعر .